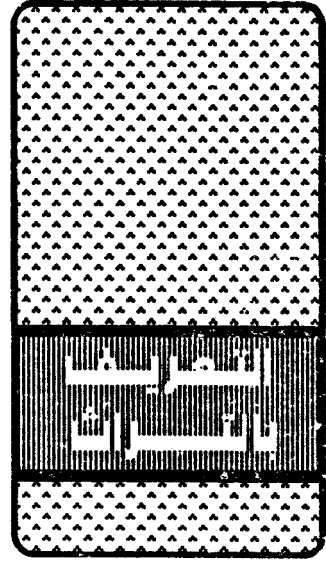


تاج العروس الجاوي لتهذيب النفوس لابن عطاء السكندي



التعريف بالمؤلف :

للعباداة ثم خرج من عزلته لوعظ الناس وإرشادهم - وبني له في بغداد رباط للصوفية على شاطئ دجلة سكنه أصحابه . وندب للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد في علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الحديث ، وولى المدرسة النظامية .

انتقل إلى دمشق لزيارة بيت المقدس ولكن لم تيسر له الزيارة لانقطاع الهدنة بين المسلمين والفرنج فأقام مدة قصيرة في دمشق رثاءك استقبله الملك العادل نور الدين الشهيد وأحسن ضيافته ، ثم عاد إلى بغداد وكانت له كرامات تكشف عن جلاء بصيرته وشدة تقواه .

ومن تصانيفه : شرح الأسماء ١٩٩ هـ ، « غريب المصاييح » ، « طبقات

هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه بن سعد السهروردي القرشي ، الصديقي ، البكري (أبو النجيب ضياء الدين السهروردي) ، وهو فقيه ، شافعي ، واعظ ، من أئمة المتصوفين . ومحدث ، ومؤرخ ، وكان يدرس الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد .

ولد سنة (٤٩٠ هـ ، ١٠٩٧ م) بسهرود وهي قرية من قرى إقليم الجبال في جنوب زنجان في الطريق إلى همدان ، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بتلقى العلم هناك ، ودرس فقه الإمام الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد ثم اشتغل بالتصوف ، وصحب إمامين من أئمة الصوفية وهما الشيخ حماد الدباس ، والشيخ أحمد الغزالي ، واعتزل الناس فترة تفرغ فيها

أ وفيما يلي الأفكار التي وردت في الكتاب وبعد العرض نبين مدى علاقتها بالمفاهيم السيكلوجية : -

في مستهل الكتاب بحث ابن عطاء الله السكندري الإنسان على طلب التوبة في كل وقت عملاً بالآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . ويشرح طريق التوبة بأنه التفكير الدائم فيما عمله الإنسان ، ثم شكر الله إن كان العمل صالحاً أو توبيخ النفس إن كان العمل غير صالح . ويحرص ابن عطاء الله على أن تكون التوبة صادقة والندم حقيقياً ، فينصح بأن يصحب توبيخ النفس الحزن والانكسار والزلة أمام الله تعالى أملاً في أن يقبل الله التوبة فيبدل الحزن فرحاً .

ويوصي بعد ذلك بأن يكون عمل العبد كله لله وأن يحرص العبد على الاقتداء واتباع رسول الله ويبين أن لهذا الاتباع سبيلين أوضحهما جي وواضح كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد وغير ذلك من الفرائض ، وثانيهما خفي وهو عمل قلبي يتمثل في الخشوع في الصلاة وتدبر القراءة ، وهو يرى أن من يعجز عن هذا التفكير التدبر تشوبه خصلة من كبر أو عجب وهنا يستشهد الآية الكريمة ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . ويشبه ابن عطاء الله ذلك الشخص الذي يظهر الاتباع الجلى دون الاتباع الخفى بالشخص المصاب

بالحمى فتتحول حلاوة السكر في فمه إلى مرارة .

ويؤكد ابن عطاء الله أهمية الطاعة القلبية حتى يفضل المعصية مع الذل على الطاعة مع الغرور والاستكبار . ويفسر أهمية الاتباع في أنه يجعل التابع جزءاً من المتبوع حتى وإن كان التابع أجنياً ويستشهد بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن سلمان الفارسي « سلمان منا أهل البيت » . ثم يفصل طريق الاتباع القويم في أنه ترك الظلم وتجنب الغيبة وقذف الأعراض .

وعرض ابن عطاء الله بعد ذلك مظاهر العصيان الظاهرة فيذكر أن المعصية تتضمن نقض العهد وفعل مالا يرضاه الله والتجرد من الحياء ، بالإضافة إلى التكاسل عن طاعة الله والغفلة عن حساب الآخرة . ويتبع ذلك بشرح طريق البعد عن المعصية ويفسره بأنه اللجوء إلى الله والتضرع إليه وزيارة ضرائح أولياء الله مع ذكر الله وقراءة القرآن والسعي في الخيرات .

ويبحث ابن عطاء الله على الصبر والثابرة في الجهاد وعدم التسرع فيشير إلى أن العبد لا يشعر بحلاوة التوبة والقبول وقت المجاهدة وإنما يشعر بها بعد أن يطهر نفسه ويثبت على طريق الصلاح .

ويحذر ابن عطاء الله من التهوين من شأن الذنوب الصغيرة ، ويرى أن في هذا

خطراً عظيماً لأن الكبائر يدركها الإنسان فيتوب منها ، أما الذنوب الصغيرة فيغفل عنها حتى يصدق عليه قول الله تعالى ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ .

ويعود ابن عطاء الله فيؤكد أهمية خشوع القلب وطلب وصدق الضمير عند رجاء التوبة والبعد عن المعاصي ويفسر ذلك بأن القلب إذا تجمد وإذا تبلدت المشاعر تكاسل العبد عن الصلاة والصيام واستصغر ذنوبه وصار منه من حيث لا يشعرك لا يفتقر إلى شيء ويوصي الإنسان بأن يذكر الله طول الوقت ويفكر في عذابه ويتنبه إلى أن الدنيا متاع « زائل » . ويدي ابن عطاء الله تعجبه من مباسطة ومؤانسة الناس للعاصين ويرى أن الأولى هو الإعراض عنهم حتى يتجنبوا المعاصي . أما إذا عصى المؤمن فينبغي الإعراض عنه في الظاهر مع الحفاظ على مشاعر الرحمة في الباطن وطلب الرحمة له .

ويفسر ابن عطاء الله أسباب الجري وراء ملذات الدنيا في أنها النظر وحسد الآخرين على ما أُعطوا وتمنى النعمة مثلهم . ويبين حماقة ذلك الموقف لأن الشخص يشغل نفسه هنا بما ليس في يده .

ويفرق ابن عطاء الله بين سلوك أهل السعادة من الصالحين المؤمنين وبين سلوك أهل الشقاوة العاصين فيذكر أن المؤمن إذا رأى عاصياً أنكر تصرفه علانية ودعى له في الباطن بالإصلاح ، أما غير المؤمن فيتشفي في العاصي ويفضحه . ويعرض

اختباراً يقاس به مدى صلاح الشخص ومفاده أن تذكر أمامه شخصاً آخر فإذا اغتابه وذكره بسوء كان ذلك برهاناً على فساد نفسه ، أما إذا ذكره بخير واتمس له الأعذار دل ذلك على صلاح سريرته .

ويوصي ابن عطاء الله المؤمن بأن يتدارك ماضى من عمره في معصية سهى فيها عن الصلاة والصيام ويرى أن السبيل إلى ذلك هو الصلاة على رسول الله لأن صلاة العبد طوال عمره لا تكافئ صلاة الله عليه مرة واحدة ، كما يوصي بحضور مجالس الذكر في المساجد حتى تكون سبيلاً لتنوير العقل وإطالة العمر بالخشوع والإيمان والخضوع .

ثم بعد ذلك على خطورة التكبر والتكبر ويعرف الشخص المتكبر بأنه الذي يحتقر الناس وينكر الحق . ولا يقتصر الكبر على ذوى المكانة المرموقة فقط بل يتخلل كل الطبقات فيشمل الغنى والفقير .

ويعمى ابن عطاء الله موضحاً طريق التقرب إلى الله فيوضح أنه يبدأ بكف شهوق البطن والفرج وعيادة المرضى ، والتصدق على المحتاج وارتياح مجالس الذكر . والافتقار بالأولياء الصالحين .

والقيام بالنوافل ، والاستغفار . ويدعو ابن عطاء الله إلى إحسان العمل ويصف العمل بأنه الخلل الذي يبقى ويتبع صاحبه وقت الحساب ويذكر أن للإنسان ثلاثة أخلاء أولها المال ويفقده الإنسان عند موته ثم

يهتم بذب الذبابة وينسى دفع الأسد ،
كذلك من يهيم الدنيا وهي كالذبابة ،
وينسى الآخرة بكل ضرورتها .

ويعضى ابن عطاء الله فيوضح أن ما يصلح القلب أربعة أمور وهي كثرة الذكر ، ولزوم الصمت ، والخلو ، وقلة الطعام والشراب . ثم يبين أهمية أن تنقاد النفس للقلب وألا ينقاد القلب للنفس ، فيشبه من يسلم قلبه إلى نفسه كمن يسلم نفسه إلى غريق فيغرق كلاهما ، أو كمثل البصير يترك نفسه لأعمى ، ومثل من يسلم نفسه إلى قلبه كمثل من يسلم نفسه إلى سباح قوى يقوده إلى السلامة . ثم يبحث على مجالسة الصالحين الصادقين فيشير إلى أنه من السهل على الإنسان أن يجد ما لا يحصى من القراء والأطباء والفقهاء ولكن من الصعب أن يجد من يذله على الله ويعرفه بعبوب نفسه . ويدعو ابن عطاء الله إلى الخلو والأنس بالله لأن حب الخلق لا يخلو من الأغراض والطمع ويذكر أن كثيراً من السلف كانوا يقاومون الرغبة في الخروج للخلق ويشغلون أنفسهم بطاعة الله . كما يدعو إلى إحسان العمل مع خلقه بدلاً من إكثار العمل مع عدم إحسانه .

وفي مجال العلاقات الاجتماعية يبرز عدداً من المفاهيم النفسية منها الميل إلى العزلة والوحدة Loneliness والانسحاب Withdrawal من العلاقات الاجتماعية Social relations والحد من

العيال وهم يتركونه عند القبر والعمل الذي لا يفارقه . ويكشف ابن عطاء الله ميل النفس إلى الرياء والتصنع وإظهار العمل أمام الناس ويضرب الأمثلة على ذلك ومنها الشخص الذي يسمى للحج لأن الحج يرى أمام الناس ، وسهر الإنسان طول الليل لطلب العلم الدنيوى مع الكسل عن الصدقة لأنها لا تُرى ، مع التافل عن صلاة ركعتين لله في جنح الليل . وهنا يدعو العبد إلى إتيان الأعمال الصالحة مع الحفاظ عليها سرا بين العبد وخالقه .

وفي مجال الشخصية Personality يؤكد ابن عطاء الله ضرورة أن يستمد الشخص سعادته Happiness من قلبه ومن رضا الله عنه ، وليس من رضا الخلق (ص ١٨ ، ص ٢١ ، ص ٢٤ ، ص ٢٩ ، ص ٤٣) . وهنا تبرز المفاهيم النفسية الآتية الانفعالات Emotions

والرضا Satisfaction والتدعيم Reinforcement ومركز التحكم في التدعيم Locus of control وتسير كلها في اتجاه مفاده أن الشخص يستمد رضاه وسعادته ومدعماته من داخل ذاته وليس من خارجها .

ويستمر ابن عطاء الله في الوعظ والوصايا محذراً الإنسان من اللهفة على الدنيا ونسيان الآخرة ويشبه المهوم بأمر الدنيا بإنسان يهاجمه سبع يريد أن يفترسه ثم وقفت ذبابة على هذا الشخص فإذا به

والاعتدال . ويمثل هذا النوع من التدبير طلباً غير مذموم للعالم وينتهي من ذلك إلى تأكيد قول أبي العباس المرسى إن العارف لا دنياه ولا آخرته له ، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه ، وبين كيف كان هذا الاعتقاد في قلوب صحابة رسول الله فوضعوا الدنيا في أيديهم وأنفقوا منها ابتغاء مرضاة الله ، ويضرب أمثلة لذلك الإنفاق منها خروج عمر بن الخطاب عن نصف ما له وخروج أبي بكر الصديق عن ماله كله في سبيل الله .

ولذلك سوف نجد أن هناك عدداً من الأفكار تقترب من عدد من المفاهيم النفسية وإن كانت الصلة بينها وبين تلك المفاهيم صلة غير مباشرة في بعض الحالات ، ففي حديث ابن عطاء الله عن الزهد ونبت الدنيا بكل ملذاتها (ص ٦ - ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ٥٣ ، ٥٧) .

١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ،

٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٧)

تبرز المفاهيم الآتية :

الكبت Repression وكف الدوافع الأولية
Primary motives كالجوع والعطش
والجنس Six .

التخاطب اللفظي Verbal Interaction أو الإفصاح عن الذات Self - disclosure والتفاعل الاجتماعي Social interaction (ص ٢١ ، ص ٢٧ ، ص ٢٩ ، ص ٣٣ ، ص ٤٢) . وإن كانت تلك الدعوة تتعارض مع بعض الاتجاهات النفسية الحديثة التي تشجع على المشاركة الاجتماعية والاتصال بالآخرين ، ويمكن القول إن الميل إلى الانسحاب أو المشاركة يتوقف على الغاية التي يهدف الشخص إليها ومن سعى لتحقيقها وسعى في ذلك الله لم يحث على الانسحاب المطلق وإنما دعا إلى مخالطة الصالحين والبعد عن العاصين (ص ١٨) .

وأخيراً يتناول ابن عطاء الله التدبير ويقسمه إلى تدبير مذموم وتدبير محمود ، فالتدبير المذموم هو التفكير والإعداد والانشغال بكل ما فيه عصيان لله أو ابتغاء الرياء . وهو تدبير يوجب العقاب أو الذم . أما التدبير المحمود فهو التدبير الذي يقرب العبد إلى الله ومنه رد الحقوق إلى أصحابها وإخلاص التوبة إلى الله وكف الشهوات وهو تدبير محمود بشهادة رسول الله إذ يقول : فكر ساعة خير من عبادة سبعين .

ويقسم تدبير التدبير إلى قسمين تدبير الدنيا للدنيا ويُميزه الاختيار والاستكثار والشره وتدبير الدنيا للآخرة ومنه السعي للرزق الحلال أو للتصدق به ويميز هذا التدبير الادخار والإثمار